مقولة السّوط المضفور للجاهِل المغرور

عبد الإله نبهان

مقولة
السّوط المضفور للجاهِل المغرور

عبد الإله نبهان

مقدمة التحقيق

عرض ونقد:

تعد مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور، من النصوص المضيئة التي نبتت في أواخر القرن التاسع عشر، عندما كانت الدعوة إلى العلم والصناعة والتقدم والتحرر في أوجها، وليست المقولة في أبعادها القصوى، سوى صرخة وطني غيور، يبغي نفخ الروح وإيقاظ الموتى من سُباتهم، وتنبيه العقول من غفلتها وتغافلها. وقد ترك المؤلف لعواطفه وخواطره العنان، فهو ساخط غاضب يوبخ ويؤنب ويقرّع، ويدل قومه على الطريق التي ينبغي أن تسلك، ويهاجم العلوم التي يراها سبب التأخر والتخلف.

إن هذه المرحلة التاريخية يمكن النظر إليها على أنها من المفاصل الرئيسية في تاريخ العرب المعاصر، وفيها برزت وتجسدت معظم المشكلات والقضايا التي كان لها شأن كبير. أولى هذه القضايا: موقف العربي من الحضارة الغربية، ماذا يأخذ وماذا يدع وكيف؟ أيقتصر على المنجزات المادية أم يغترف من الماديات والفلسفيات معاً؟ وكيف يمكن له أن يحافظ على أصالته في هذا الخضم الزاخر؟. والقضية الأخرى الهامة، قضية التعارض المصطنع بين العلم والدين، وهي مسألة أثارت كثيراً من الجدل، وألفت حولها الفصول والرسائل والكتب وألقيت المحاضرات، وامتد سلطانها إلى صفحات التفاسير القرآنية التي ظهرت في هذه المرحلة التاريخية وما تلاها. والقضية كلها –إذا تركنا جزئياتها– لا تعدو أن تكون انعكاساً لموقفين: موقف بعض المتدينين الذين لم يفهموا جوهر الدين وأصوله، فأخذوا يحاربون الحضارة والعلم باسم الدين. والموقف الثاني: موقف بعض المغرضين أو المضللين –بفتح اللام وكسرها مع التشديد– الذين أرادوا استغلال التقدم العلمي في أوربا، ليحاربوا من خلاله الأديان، فجعلوا يتصيدون بعض الآيات الكريمة، أو الأحكام، ليعرضوها على أنها تنافي العلم والتقدم والحضارة، موهمين بذلك أنه لا مناص لشعب يريد التقدم من أن يترك دينه وعلومه التقليدية المعروفة.

كلا الموقفين أثار ردود فعل مختلفة، وسبَّب ملابسات كثيرة، وخلق مناهج جديدة في التفسير والتأويل.

ونص المقولة التي بين أيدينا مرآة صادقة تنعكس فيها هاتان القضيتان بكل أبعادهما، فالمؤلف يدعو مواطنيه ويحضهم على الإقبال على العلوم العصرية، والتمتع بالمخترعات الحديثة، ويلهب حماستهم بما يثيره فيهم من كوامن النخوة، بتذكيرهم بأجدادهم وعلومهم وفنونهم، ويثير مسألة الحضارة بالرد على بعض المتعنتين الذين لا يعترفون بفضل الحضارة الغربية ومخترعاتها الحديثة، وينسبون كل فضل لليونان، فيرد عليهم بما معناه: إذا كنتم تزعمون أن هذه المخترعات موجودة في كتب اليونان – وكتب اليونان عندكم منذ القديم– فلماذا لم تسبقوا الغرب إليها؟ ثم يقرِّعهم بقوله: "والحال أن اللوم لا

زال منصَّباً عليهم ونسبةَ الجهل ما برحت منحازة إليهم". ويبين المؤلف أن هذه الفئة قد تنسب إلى الكفر من يصدِّق بوجود بعض المخترعات العصرية، وقد رد على هذه الفئة أقوالها بكلام نفيس نقله من كتاب "تهافت الفلاسفة" لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

ثم ضرب أمثالاً من الحقائق الجغرافية التي لا تؤمن بها جماعة المتعنتين وتحاربها، وأظهر استياءه من جهل هؤلاء القوم، وعدم مبالاتهم بحقائق الأمور فيما يتعلق بمختلف العلوم، ورد تعنتهم وجمودهم وحرصهم على الجهل إلى أسباب نفسية شخصية، لأنهم يحرصون على مكانتهم ويخشون أن يظهر جهلهم أمام علم الجيل الجديد، فهم يحاربونه بالمكابرة والسخرية والإنكار.

ثم شن الكاتب حرباً على الخرافات البالية التي يؤمن بها عوامُّ الناس ومن يضللونهم، فهم لا يصدقون العلوم ببراهينها القوية وأدلتها اليقينية، ولكنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان، كإيمانهم وتصديقهم لقصة الثور الذي يحمل الأرض، والحوت الذي يحمل الثور، ينسبون هذه الترهات إلى مصادر عالية ليوهموا أنفسهم وغيرهم بصحة اعتقادهم وصدق ادعائهم. وقد بينت في تعليقاتي على النص مصادر هذه الأخبار، مما يساعد على تمييز صحيحها من زائفها.

ثم حاول المؤلف أن يبين التطابق والتوافق بين الآيات الكونية وبين العلوم العصرية، فسرد بعض تعليقات الشيخ أحمد محمد الألفي على بعض الآيات الكريمة مبرهنا أنه لا تعارض بين العلم والدين. فما موقف أنصار الجهل من هذه البراهين؟ أنهم يقولون: أن هذا البحث حرام وأنه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه؟!.

وهنا ينبري كاتبنا ويأتي بالآيات الكريمة التي تحث الإنسان على التفكير، وتدفعه إلى طلب العلم، ويبين أن هؤلاء الجاهلين غارقون في جمع الأموال، يبددون أوقاتهم في تكرار أحاديثهم التي تعودوها، فهم يرددونها لا يملون، ويعيدونها فلا يسأمون، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: (سماعون للكذب أكَّالون للسحت).

ويورد الكاتب عدداً من الشواهد الشعرية التي تحث على طلب العلوم العصرية، وتحارب العلوم التقليدية كالبديع والنحو والصرف، ويهاجم الشعر بالشعر.

ثم ينتقل إلى ناحية هامة وهي الإقرار بالعجز، وإظهار الدهشة العارمة أمام إنجازات الحضارة الأوربية، فعقولنا الضعيفة –كما يصور– لا تتصور عمل الكبريت الملون، فما بالنا بالمخترعات العظيمة "كالتلفون والوابور والمكروسكوب وحافظة الصوت" فهذه هي الأمور الكبرى التي لا نستطيع أمامها حراكاً. وتذكِّرني هذه الدهشة والإقرار بالعجز، بموقف الجبرتي عندما شاهد بعض تجارب

كيميائية أجراها بعض ضباط الفرنسيين أيام حملتهم على مصر فقال بعد أن وصف تلك التجارب: .... ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا (تاريخ الجبرتي 3/37). وهذه الدهشة أمام منجزات الحضارة أمر طبيعي ومشروع، على أن يتلوه شعور بتماسك الشخصية، وثقة بالنفس، حتى لا تذوب شخصية الفرد والمجتمع وتضمحل في غمرة دهشتها وإعجابها.

ويهاجم المؤلف علوم العربية من نحو وصرف وبديع، وكأنها هي العائق الذي يحول دون الإقبال على العلوم العصرية، كما أنه يهاجم ألعاب التسلية وقتل الوقت المعروفة والمنتشرة في المقاهي.

ولما كان المؤلف ينعى على مواطنيه اهتمامهم بالشعر وما يتعلق به من بديع وبلاغة، فإنه رأى أن يرسم خطة تربوية تعليمية مفادها أن لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان علماً بناسبها، فالشعر من العشرين إلى الثلاثين، وبعده التاريخ ثم الهيئة ثم الجغرافية... الخ.. على أنه يعود بعد ذلك، فيقر بفضل الشعر إذا كان حسناً، ويورد أرجوزة للشيخ حسين الجسر تتضمن الحض على طلب العلوم، ثم ينظم هو نفسه قصيدة وعظية تدعو إلى مكارم الأخلاق. ويضرب بعد ذلك أمثلة من الشعر الرديء الذي لا ينبغي الاعتناء به حسب رأيه.

ولنا الآن أن نتساءل: أكان هجوم المؤلف على العلوم التقليدية منصفاً؟ وهذه العلوم التي هاجمها، هل هي حقاً سبب التأخير والتخلف والجهل؟!

إذا نظرنا بعين الإنصاف، وجدنا أن هذه العلوم كانت علوم قوم لم يكن لها غيرها في وقتهم، وما كان لهذه العلوم أن تعيق التقدم، أو تقف في سبيله، لو وجدت أسبابه وتحققت دواعيه، وتوفر له من ينهض بأعبائه، ولو أن المؤلف كان منصفاً ومتجرداً عن غضبه وانفعالاته، لذكر أن الأوربيين كانوا –وما زالوا– يعتنون بلغاتهم ونحوها وصرفها وشعرها وبديعها وبلاغتها، ويعقدون لها المؤتمرات، ولا يبخلون على بحوثهم فيها بجهد ولا مال، ومع ذلك فإنهم لا يرفعون عقيرتهم قائلين أن الاهتمام بالأدب واللغة يعيق التقدم ويسبب التأخر، فمن أين نبعت أفكار مؤلفنا؟

للإجابة عن هذا السؤال رحت أقلب صفحات المجلد الثامن من مجلة المقتطف الصادر سنة 1883، لأنني أثناء تحقيقي للمقولة، تبينت أن المؤلف قد قرأ هذا المجلد واقتبس منه، ولم يخب ظني، وأصابت الرمية المقتل، فلنستمع إلى "فارس نمر" ص581: (أيقنع علماؤنا "بخرفشة النحاة" وعلماء الإفرنج قد جابوا الأقطار، وركبوا متن السحاب، وطاردوا قوات الكون حتى أمسكوا بنواصي البرق، وذللوا أعناق الصواعق، فانقادت إليهم صاغرة، وأصبح عاجزهم إذا نادى البروق مثلت بين يديه، وإذا أمر الصواعق أسرعت تدك الأطوار، وتنسف الصخور، وتفتح الأسراب طوعاً لما يريد..).

إنها شنشنة أعرفها من أخزم، وأنها –وأيم الحق– انتقلت إلى مؤلفنا فرددها معجباً بها، دون أن يدرك انكسار القياس وانحسار مقومات البرهان في أمثال هذا الكلام الفج، فكل علم له مقوماته وفوائده، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولا نستطيع أن نحمِّل علماً من العلوم وزر التخلف والتأخر، لأن التخلف يرتبط بطبيعة المجتمع وتكوينه الداخلي ووضعه الدولي.

وأسائل: لو أن أولئك الناس الذين كانوا يعنون بالبديع والصرف والبلاغة والنحو، تركوا هذه العلوم، ولم يتح لهم من يرسلهم في بعثات إلى أوربا، فهل سيتحقق التقدم بذلك؟!

يبدو لي أن غضب المؤلف على التخلف والجهل، واستياءه من سماجة العاملين في حقل العلوم القديمة، جعله يصب جام غضبه على علومهم، وكأن هذه العلوم تتحمل أوزار انحطاط عقول ممارسيها، فما وزر علم البديع إذا كان صاحبه مثلاً لا يقر بكروية الأرض، أو كان يعادي العلوم الجديدة؟!

إن هذه المواقف الانفعالية، التي ليست في جوهرها سوى ردود فعل تلقائية عفوية، تمنح هذه المقولة قيمة أدبية وتاريخية وفكرية، إنها مرآة صادقة تصور لنا طبيعة تفكير أحد المتعلمين في أواخر القرن التاسع عشر، وأنها دعوة حارة للحاق بركب العلم والحضارة. ولكن كيف يتم ذلك؟ أيتم التقدم بالصراخ والعويل والشتم وتعداد مخترعات الأوربيين؟! إن مقالات "فارس نمر" في المجلد الثامن من المقتطف –وقد قرأها مؤلفنا بلا ريب– تدور حول الإصلاح الزراعي والصناعي والعلمي والأدبي، فكيف كان الرجل يتصور الإصلاح؟ إنه لم يكن عنده أي تصور لتنفيذ أي إصلاح، وكل ما في مقالاته تعداد وإحصاء لما أنجزه الأوربيون في ميادين الحياة، ثم شتم للنحاة والصرفيين والبلاغيين وعلومهم لأنهم هم سبب التخلف؟! ولتهنأ الآن روح "فارس نمر" لقد ذوت علوم النحاة وانحسرت، وجف عود الصرف وذبل، وتأوَّد عمود البلاغة وانكسر، وانسحقت حلي البديع وعادت هشيماً تذروه الرياح، ومع كل هذا ما زلنا نلهث في المؤخرة، هذا إذا أحسنا الظن بأنفسنا.

على أن مؤلفنا يعود بعد تقريعه وانتقاده ليذكِّر العرب بحضارة أجدادهم، وينقل صفحات كاملة من كتاب أقوم المسالك للمصلح الكبير "خير الدين باشا التونسي"، كما ينقل من مجلة المقتطف أقوالاً تمثل اهتمام الأجانب بعلوم العرب وصناعاتهم وتقديرهم لحضارتهم العظيمة.

ويأتي المؤلف بشواهد شعرية تدعم رأيه، وهي ركيكة الأسلوب، وتعد شواهد نموذجية لاستمرار ركاكة عصر الانحدار والعصر العثماني في القرن التاسع عشر.

ومن الغريب أن المؤلف الذي كان يدعو مواطنيه في أول مقولته إلى الاعتراف بفضل الغربيين، وإلى الاستفادة من علومهم ومخترعاتهم، هذا المؤلف نفسه يورد قصيدة في آخر المقولة، هي غاية في

السخف والركاكة والرقاعة، فقد حشيت بالفخر الأجوف، والشتائم العامية المبتذلة الموجهة إلى الغربيين، ثم يعتذر المؤلف عما أورده من الشعر، بأن الشاعر كان متحمساً. فلمَ أوردها إذن؟! إنه في أعماقه يكره الغرب، وينقم على قومه نقمة مبعثها الحب والحرص على مصلحتهم، وهو مشتت النفس، حائر الوجدان، بين ماضٍ عريق وحاضر باهت، وهذا ما جعله يحجل ويضطرب، إنه كالغريق يريد أن يتشبَّث بما تصل إليه يده، ولو كان طحلباً أو نسيج عنكبوت. إن الفارق شديد بين أول المقولة بما فيه من اتزان وتفهم وحرص على العلوم والإنصاف وبين تلك القصيدة التي اختتمت بها وما فيها من ركاكة ورقاعة.

على كل حال يبقى نص هذه المقولة من النصوص التي تهم دارسي هذا العصر من نواحيه جميعاً، اللغوية والحضارية والعلمية والتاريخية والاجتماعية، وسواء أصحت افتراضاتي التالية فيما يتعلق بالمؤلف ومكان التأليف أم لم تصح فإن النص يبقى محتفظاً بقيمته ودلالاته المتنوعة. فمن هو مؤلف المقولة؟

المخطوط ومؤلفه:

منذ عامين على وجه التقريب لا التحديد وضع صديقي الفاضل المفضال الأستاذ رفيق حمدان بين يدي مخطوطين صغيرين (قسا 21×14) يقع أولهما في ثلاث وخمسين صفحة، وعنوانه: "مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام" والثاني له مواصفات الأول نفسها، وعدد صفحاته سبع وأربعون صفحة كتبت بخط نسخي مقروء، وفي الصفحة ثلاثة عشر سطراً، وعنوانه "مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور" وقد أثبت تاريخ النسخ في نهاية كل من المخطوطين سنة 1311هـ، ولكن لم يُذكر اسمٌ للمؤلف، وكل ما وجدته من ذلك عبارة كتبت في آخر مقولة كشف اللثام: (تمت على يد كاتبه الحاج خرشد المسائل) ورسمت الخاء مشابهة للميم، وحبر العبارة وخطها مغاير للأصل ورحت أحاول البحث عن المؤلف محاولاً الاستفادة من كل القرائن الموجودة، فمؤلف "مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام" حلبيٌ لاشك في ذلك، لأن مقولته ليست أكثر من هجوم صاعق –ولكنه طريف– على أهل دمشق وعاداتهم تعصباً منه لحلب، خطر لي أن يكون لهذه المقولة ذكر في أعلام النبلاء ففتشته فلم أعثر على شيء، وقد خطر لي أيضاً أن يكون مالك النسخة هو مؤلفها، فقد خُطّ على الورقة الأولى من كشف اللثام ما يلي: "ملكه الفقير إليه تعالى محمد ناجي الكردي خادم أموي حلب عفي عنه 27 ح سنة 1311" ولكني لم ارض عن هذا الافتراض بعد أن عرفت من أحد أقرباء السيد محمد ناجي الكردي أن الرجل لم يكن يكتب ويؤلف، وإنما كان تاجر كتب وكان له ولع بجمع الصحف والمجلات.

أما مقولة السوط المضفور فليس فيها أية إشارة إلى المؤلف، ولكنني رجحت أن يكون مؤلف المقولتين واحداً بسبب تشابه الخاتمة في كل منهما، فمقولة كشف اللثام ختمت بما يلي: "وأرجو ممن

نظر في هذه المقولة أن يغض الطرف عما وقع فيها من الخطأ، ويسمح لي عن اللحن والركاكة إذ لا قدرة لي أن أنمِّق الكلام معرباً ومحسَّناً بأنواع البديع والبلاغة، والمنصف من يقبل العذر، ويغفر الزلات، وصلى الله على من لا ينطق عن الهوى وآله وصحبه وأهل بيته وسلم تسليماً كثيراً آمين تمت ح 15 ر 1311".

واختتمت مقولة السوط المضفور بما يلي: "وأرجو ممن اطَّلع على هذه المقولة المشوشة المبنى، أن ينظر إليها بعين الإنصاف من حيث المعنى، ولا يطلب مني، تنميق العبارة، ولا الجمل المزينات بالتورية والاستعارة، فإني قليل البضاعة في هذه الصناعة، فالمفلس معذور، والكريم غفور، وصلى الله على سيد خلقه، ومن فاق الجميع بخلُقه وخلقه، ورضي عن آله وصحبه وأهله حزبه آمين. حرره في ح سنة 1311" فالمقولتان حررتا في ح (أي: حلب على ما يبدو) في سنة واحدة وكتبنا بخط واحد، وجلدتا بلون واحد وتنتهي كل منهما بخاتمة تشبه الأخرى، كل هذا أوحى إليّ أن تكونا لمؤلف واحد.

وانطوت الأيام، والمقولتان عندي طيّ النسيان والإهمال، ثم قدّر لي العثور بين أوراق قديمة على مخطوط صغير يقع في أربع وسبعين صفحة (قياس 16÷12) عنوانه: "سانحة أدب من ساحة حلب" لمحررها خورشيد أفندي الكردي، وقد أرخ نسخها في حمص 1321هـ، ولم يذكر اسم الناسخ وأظنه الشيخ أحمد نبهان، وكانت كما يلي: "فالمأمول من الأفاضل، غض الطرف عن الخلل، وحبذا إن صح لي من فضلهم هذا الأمل، خصوصاً عن بعض ألفاظ جاءت عامية، وبعض ألفاظ مخالفة للأساليب العربية، هكذا اقتضى الحال، فإن لكل مقام مقال [كذا]، ولعل دقيق وضعها يشفع في ركيك لفظها وفساد سجعها، فإنه لما كان جل قصدي إبداء النصيحة، لم أر حاجة لتقصي الألفاظ الفصيحة... الخ".

فهذا الأسلوب في الخواتم، يوحي إليّ أن مؤلف هذه المقولات كاتب واحد، وخاصة أن بعض الأبيات التي وردت في السوط المضفور، وردت أيضاً في سانحة أدب، زد على ذلك أن الأفكار في المقولتين واحدة، فتعظيم الصناعة والازدراء بالشعر والأدب والبديع واحد في المقولتين في كلتيهما، فهو يقول مثلاً في سانحة أدب: "وإني –والله– لأرى مخترع الإبرة بالثناء أجدر من ابن المعتز الذي فاق أقرانه ببديعه وتصدّر، لأن تلك ضرورية الوجود في جميع الأقطار، وهذه عديمة النفع عند أولي الأبصار، فما قولك في مخترع آلة الطبع هل يقاس به مستنبط النظم والسجع.. الخ".

فإذا صح لنا استناداً إلى ما ورد من أدلة وقرائن أن نفترض أن مؤلف هذه المقولات هو شخص واحد وأنه هو خورشيد أفندي الكردي، فمن هو خورشيد أفندي الكردي؟

لقد حاولت التنقيب في بطون الكتب بقدر استطاعتي فلم أحظ بطائل، سألت بعض الشيوخ من أهل العلم فلم تسعفهم الذاكرة بشيء ذي بال. وشاءت المصادفة أن أقرأ ترجمة موجزة للسيد عبد الرحمن

الكواكبي في معجم المؤلفين للأستاذ عمر رضا كحالة، فوجدته يذكر أن السيد الكواكبي درس العلوم العصرية على خورشيد أفندي من أدباء الترك، وذكر الأستاذ سامي الكيالي مثل هذا في كتابه "الأدب المعاصر في سورية" وأشار الطباخ إلى أن السيد الكواكبي تلقى الفارسية والتركية على يد أديب في اللغتين ولم يذكر اسمه، فهل يكون خورشيد أفندي الكردي هو نفسه خورشيد أفندي أستاذ الكواكبي؟! وهل نستطيع أن نربط بين كون خورشيد أفندي مدرّساً للعلوم العصرية وبين هذه المقولات؟! ربما[1]. إلا أن الأمر أولاً وأخيراً يبقى في نطاق الاحتمال والظن والتخمين. وحسبنا أن نضع هذا النص بين أيدي السادة الباحثين ليأخذ مكانه بين نصوص عصر النهضة، ولعل أحداً من أهل العلم يهتدي بما تتيحه له علاقاته ومصادره إلى كثير مما غاب عنا علمه وجانبنا فيه الصواب، وفوق كل ذي علم عليم.

* * *

مقولة السّوط المضفور للجاهل المغرور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموصوف بالقِدم، بارئ المبروءات(1) من العدم، مكوِّن الأكوان ومديِّرها، ومقدر الأمور ومدبرها، خلق الإنسان وفضَّله على سائر الحيوان، وأمره بالتبصر في بدائع مخلوقاته، والتدبر في روائع مصنوعاته، فاطَّلع بمشيئته على بعض حكمته العظيمة الأحكام، المنسكبة في قالب الإتقان والانتظام. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الصواب، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب، الذي أنزل عليه في محكم الكتاب: (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) (2) وعلى آله وأصحابه أهل الحميَّة والدين، القاطعين بسيوفهم رقاب العصابة الضالين المضلين ما سطعت شمس اليقين، فأزالت بأنوارها غياهب غرور المغترين. وبعده فيقول الفقير إليه تعالى مؤلف هذه المقولة –غفر الله له وللمسلمين آمين: [ص2].

إن من أعظم ما يوجب الأسف، ويقضي بالحزن، على من لم تزل تحركه الحمية الإنسانية، هو النظر فيما آل إليه حال وطننا من تواري شمس العلوم والمعارف عن أهله، بعد أن كانوا في درجة من الفضل والتقدم معلومة مشهورة. ولا زال الأمر معهم بالتقهقر إلى أن وقعوا في وهدة عميقة من الجهل المحض، فساءت بذلك أخلاقهم، وفسدت آدابهم، وضاق معاشهم، وأغلقت دونهم أبواب النجاح.

وكثيراً ما كانت تحركني المحبة الوطنية، وتحثني على ذكر كليمات تعرب عن بعض تلك الأحوال التي اعترتهم وطمست معالم مجدهم، وعادت عليهم بالوبال وسوء المنقلب. وتذكرهم بما كان لسلفهم من العلوم وغرائب الفنون، عسى تشبّ في أجسامهم نيران الجد والاجتهاد تلافياً لما فات وهيهات. فشرعتُ بما كنت أنويه والله عالم بما أبديه وأخفيه فقلت: آن كثيراً من خواص أهل بلادنا –فضلاً عن عوامها–، إذا سمعوا ما للإفرنج من البراعة في الصناعة، والسعة في العلوم والاكتشافات[3] الجديدة –العلمية والعملية– أنكروا ذلك عليهم واستعظموا سماعه، وما ذلك إلا لأنه يكون سبباً لإظهار جهلهم. وقصورهم في الهمة فدفعاً لهذا المحظور، وتخلصاً من نسبتهم إلى الجهل، ترى إذا قيل لأحدهم: "إن الإفرنج قد اخترعوا –مثلاً– قُبَّة من القماش تحمل إناساً وتطير بهم في طبقات الجو(3)، فيسيرون بها لأي جهة شاؤوها(4)" يبادر حالاً بقوله: إنها مأخوذة من كتب اليونان، فإنها كانت مستعملة عندهم.

كما أخذوا عنهم التلغراف(5) والوابور(6) والتلفون(7)، مع أنهم يعلمون بأنهم يكذبون في دعواهم. والسبب الذي يحملهم على أن ينفوا أصل الاختراع عن الإفرنج المسيحيين، ويثبتوه لليونان مع أنهم كانوا وثنيين، هو إيهامهم(8) بأن اليونان أمة خصها الله بالمعارف وأنزل الحكمة عليها دون غيرها، وبذلك

يكون غيرها من الأمم غير ملوم إذا لم يكن عنده علوم مثلها، وبهذا الإيهام يزعمون أنهم دفعوا الملام عن أنفسهم، والتمسوا عذراً لجهلهم وعدم قدرتهم على الاختراع واكتشاف شيء، والحال أن اللوم لا زال منصباً عليهم[4] ونسبة الجهل ما برحت منحازة إليهم، إذ لو سلمنا بدعواهم الكاذبة أن الإفرنج استنبطوها من كتب اليونان فلمَ لا يقدرون أن يجاروهم في الأخذ منها –كما زعموا–؟ مع أن كتب المذكورين ترجمت إلى العربية ولم يكن الإفرنج حينئذ يعرفون القراءة ولا الكتابة ولكن(من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة)(9)

فهذا حال أهل بلادنا فما ينسب للإفرنج من الاختراعات المحسوسة، حتى إنهم لربما أجروا هذه المكابرة في المخترعات التي ينتفعون باستعمالها كل يوم، ويتزينون بغالب أنواعها. فما بالك في إنكارهم ومكابرتهم في الاكتشافات العلمية التي تنسب للإفرنج مما ليس يمكنهم أن يشاهدوها عياناً، فإنهم لا يعتقدون ولا يصدقون بها أصلاً، ولربما ألقوا من قال بها أو ذكرها في الكفر. نعوذ بالله من جهلهم مع أن الدين ربما كان مشيراً إليها، أو لم يتعرض لها بشيء من الإنكار كما قال الإمام الغزالي(10) قُدس سره العزيز في كتابه المسمى "تهافت الفلاسفة" ما نصه: "ليعلم أن الخلاف بينهم –أي الفلاسفة [5] وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام:

الأول:(11): يرجع النزاع فيه إلى لفظ مجرد، كتسميتهم صانع العالم(12) جوهراً، مع تفسير (13) الجوهر بأنه الموجود في الموضوع، أي: القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى مقوم(14).

والثاني:(15): مالا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء(16) منازعتهم فيه كقولهم: إن خسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أنه يقتبس نوره من الشمس. والأرض كرة والسماء محيطة(17) بها من الجوانب فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس. وكقولهم: إن كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة. وهذا المعنى(18) أيضاً لسنا نخوض في أبطاله، إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا تبقى معها ريبة. فمن يطلع عليها ويحقق (19) أدلتها ويخبر[6] بسببها عن وقت الكونين(20) وقدرهما، ومدة بقائهما إلى الانجلاء، إذا قيل له: هذا(21) على خلاف الشرع لم يسترب فيه وإنما يستريب في الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه. وهو كما قيل: "عدو عاقل خير من صديق جاهل" انتهى كلام الغزالي(22). فعلى ذلك إذا قلت لهم حسب ما قرره العلماء الأرباويون وأثبتته الأدلة القويمة القاطعة: أن الهواء المحيط بالكرة الأرضية يعادل ثقله ثقل بحر من الزئبق مكتنف للكرة على عمق ثلاثين قيراطاً(23)، فتراهم حالاً يبادرون بالإنكار، ويقولون على سبيل الاستهزاء: بأي ميزان وزنوه؟ وبأي مكيال كالوه؟ فهذا لا يسلم به عقولنا فلا نصدقه أبداً. ويعددون من

الألفاظ التي يستعملونها في أحوال الإنكار والسخرية ليجعلوها(24) كالدليل لإنكارهم كقولهم: هذه سفسطة أو خرافة أو بدعة، ويضحكون ويتغامزون، وإذا أردت أن تثبت لهم ذلك، ففضلاً عن أنهم لا يسمعون ليس لهم أذهان تقبل الدليل، لعدم تمرينهم على [7] سماع الحقائق من الناصح، بل هم متمرنون على الاستهزاء والإنكار والسخرية. والحال أنهم لو سمعوا ووعوا لأظهر الدليل صدق ما جعلوه مستحيلاً بعقولهم الغليظة، ولتذكروا أن الإفرنج لو لم يكونوا يعلمون مثل ذلك لما قدروا على مد السكك الحديدية، لأن مد قضبان الحديد متوقف على معرفة الارتفاع والانخفاض في سطح الأرض(25)، وهو متوقف على معرفة وزن الهواء(26)، فلو كان ذلك مجهولاً عندهم لفاتهم عمل السكة المذكورة. وكذلك عمل طلومبة(27) الماء، التي ترفع الماء من الجب إلى سطح الأرض، مالم يكن عمقه أكثر من خمسة عشر ذراعاً، وإلا فلا يكون ضغط الهواء كافياً لرفع الماء(28)، لأن قيراطاً مكعباً من الزئبق يعادل في الثقل قدماً مكعباً من الماء فتنبه. فقل لي –أصلحك الله– ما فائدة قولهم: إن عقولنا لا تقبل هذا؟! فكأنهم يظنون أن عظام الأمور متوقف وجودها على قبول عقولهم السخيفة لها!! أو كأن الإفرنج مفتقرون لرواج مخترعاتهم إلى شهادتهم لها!! كلا، ألم يعلم أهل تلك العقول[8] الناقصة أن القوم غير مبالين بإنكارهم، وليسوا مكترثين بإقرارهم، وهم كل يوم في اختراع جديد واكتشاف غريب وترقّ عجيب، وبذلك تحسنت أحوالهم، وقويت نفوسهم، وتجملت بلادهم، وطابت معايشهم، وقهروا معانديهم، واستحوذوا على أموالهم. فسبحان من يختار من شاء من خلقه لكشف أسرار حكمته. فما كان أجدر بهؤلاء المغفلين بدلاً عن الإنكار أن يطلبوا دليلاً على ما قيل لهم وحقيقة ما ذكر لديهم، ويسعوا بجدهم –إن كان لهم جد– إلى معرفة ذلك أو تقليده على الأقل، بل على الأقل الأقل أن يعرفوا وجهه من الإمكان لئلا يبخسوا أحداً حقه كما هو شأن أولي العقل والحزم، فإن جميع هذه البضائع والاكتشافات لها قواعد علمية وأدلة يقينية يمكن لكل إنسان بالتأمل والاشتغال أن يتعلمها ويتصور نتائجها بوضوح تام.

والذي يدلنا على شرف تلك العلوم وحلها دلالة يقبلها الفكر السليم، هو أنه يوجد الآن عدد كثير من الآلات [9] والاختراعات التي صنعتها الإفرنج وجعلتها وسائل ومقاصد لعلوم وفنون عديدة في المكاتب السلطانية، كالآلات المتعلقة بالهندسة وفن الكيمياء والكهربائية والفلك وغير ذلك مما يساوي قيمته ألوفاً من الليرات، وقد أنشأ جلالة مولانا المعظم المكاتب الابتدائية في جميع ممالكه المحروسة اهتماماً بشأنها، وربط الرواتب للمعلمين وللأولاد الفقراء الذين هم غير قادرين على صرف أوقاتهم بدون معاش يكتسبونه بكدهم، وقد أنفق على ذلك المبالغ الباهظة ولا يزال منفقاً، وزد على ذلك مصاريف الشبان من رؤساء عساكرة المنصورة الذين يرسلهم إلى عواصم أوربا ليتلقوا من مدارسها تلك العلوم، فيرجعوا يبثوها (29) (يبثونها) في ممالكه المحروسة. فهل جميع ما يفعله سيدنا ومولانا أمير المؤمنين من هذه الأمور هو عبث على حسب زعمهم الفاسد؟ أو يقصد أن يغش رعيته ذلك؟ معاذ الله أن يكون ذلك منه وهو أحرص الناس على ترقي رعاياه وإنقاذهم من ظلمات [10] الجهل مع مراعاة(30) الشرع الشريف. فلو لم يتحقق نفع هذه العلوم مادياً وأدبياً لما فعله أصلاً وأمر بتعليمه، لأن جلالته لا يقدم على أمر ما لم يوافق الشرع بموجب فتوى من المشيخة الإسلامية. ولكن أبت معاشر الجهلاء إلا

المكابرة، ولو بالمحسوس، مخافة من أن يكونوا يوماً في أحد المجالس ويسألهم أحد الأولاد الناشئين في المكاتب الشاهانية بعض الأسئلة العلمية التي لا يقدرون على الإجابة عنها. كما لو سألهم عن سبب الكسوف أو الزلزال أو وميض البرق أو قعقعة الرعد ونحو ذلك، فإنهم إن لم يجيبوا أصلاً ظهر جهلهم لدى من يوهمونه بأنهم على شيء من العلم. وإن أجابوا بما عندهم من التعاليل الباردة كنسبة الكسوف لوقوع الشمس من العجلة، والزلزال لتحرك الثور الذي يحمل الأرض(31) ووميض البرق للمعان السوط الذي بيد الملك يسوق به السحاب، والرعد لصوت زجره للسحاب، صاروا سخرية بين القوم بعد وضوح [11] تعاليل ذلك ومعرفتها أتم المعرفة لدى أغلب الأولاد المكتبلية (32) فضلاً عن مشاهير الناس من علماء العصر الجديد، ورفض تلك الخرافات. وما أحسن ما قاله العالم الفاضل حسن أفندي الطويراني(33): "ولو أردنا أن نصدق كل حديث يروي لنا لروينا الأعاجيب فقد ورد أن الله خلق آدم على صورة الرحمن(34). وورد: رأيت ربي في صورة شاب أمرد(35)، وورد أن الله ينزل في ثلث الأخير كل ليلة إلى سماء الدنيا فينادي كذا وكذا(36)، وأن النيل والفرات وسيحون وجيحون تنزل من الجنة(37)، وأن الأرض طولها خمسمائة عام وعرضها وسمكها وما بين كل أرض إلى أخرى كذلك والسموات أيضاً (38). وأن أول طعام المؤمنين يوم القيامة كبد الحوت الذي يحمل الدنيا(39)، وأن السموات بعضها من حديد وبعضها من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد وأن لها أبواباً ومفاتيح وغير هذا مما لا ينتهي من جريان الشمس على العجلة وجر الملائكة لها في بحر الفلك. وهكذا من الأمور التي برّأ الله[12] منها رسوله ولكن ادّعاها المدّعون وكتبوها ونسبوها إلى مصادر عالية بالطبع حتى يمكن أن يجبروا الناس على تصديقها لعلو السند وشرف المقام، ولكن كل ذلك ليس ببرهان مقبول"(40) انتهى كلام حسن أفندي الطويراني. وقد ثبت كثير من أقوال الحكماء المتأخرين ما وافق أي القرآن، وقد صرح بذلك العالم الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي(41) في جريدة الإسلام فقال: "قد ورد في القرآن المجيد ما يثبت تكور الأرض ودورانها طبقاً لما اكتشفه المكتشفون قال تعالى: (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة)(42) أي يخلف بعضها بعضاً بسبب تكوّر الأرض ودورانها. وقال تعالى: (وأيةٌ لهم الأرض الميتةُ أحييناها)(43) إلى قوله تعالى: (ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون)(44)، فإنه لا يتعين عدم السبق إلا بالتوالي والإمكان لذلك إلا بالتكور والدوران. وقوله: (وكلٌ في فلك يسبحون) بالجمع في الموضعين، يفيد أن الأرض والشمس [13] والقمر يسبحون في فلك، إذ لو كان المراد الشمس والقمر فقط لقال: وكلاهما في فلك يسبحان بالتثنية في الموضعين. وقال تعالى: (والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاّها، والليل إذا يغشاها)(45) فإنه جعل النهار الذي هو مقابله وجه أرض للشمس مجلياً لها، والليل الذي هو الظلمة الأصلية للأرض مغشياً لها. وأسند فاعلية ذلك لفاعل آخر غير الشمس والقمر وهو الليل والنهار اللذان هما من آثار الأرض وغير ذلك من الآيات.

وإذا كان هذا معلوماً، فما يدل من الآيات الأخر على انبساط الأرض وطلوع الشمس وغروبها يمكن تأويله باعتبار الأبصار والعرف الجاري، وليس في قوله تعالى: (والشمس تجري لمستقر لها)(46) ما يفيد أنها تدور حول أرض بل ويمكن –والله أعلم– أن يقال: إنها تجري لمستودعها، أي: تدور حول

نفسها، فقد علمت أنه ليس في أصول الشرع ما يخالف الاكتشاف القطعي بل ولا الظني، لكن لما كان البحث عن أصل التكوين ليس مقصوداً [14] للشرع، وهو من وظائف العلماء الباحثين –كما تقدم– فلا تؤول (47) النصوص الشرعية التي أساسها اليقين بما لا يطابق ما اكتشفوه بالدليل العقلي القطعي، وأما الظني فلا" انتهى كلام الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي.

وأقول: إن أوضح وأصرح من هذا كله قوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء)(48) فإنه من تأمل هذه الآية الكريمة حق التأمل ونظر فيها بعين بصيرته وجدها ناطقة نطقاً جلياً عن حركة الأرض ودورانها. والقول بأن هذا يكون عند قيام الساعة مدفوع من وجوه:

الأول: أن "ترى" فعل مضارع وهو حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال وإذا تعارض المجاز والحقيقة قدمت الحقيقة كما هو مقرر في الأصول(49).

الثاني: قوله: (صنع الله الذي أتقن كل شيء)(50) فإن ذلك لا يناسب أحوال الساعة التي تدك الأرض دكاً وتنسف الجبال نسفاً حتى تتركها كالعهن المنفوش، فإن تلك الحالة حالة إخراب وإعدام لا حال صنع[15] وإتقان.

الثالث: أن الأليق بالعجيب من صنع الله أن يكون بالأمر الحالي المشاهد لا بالأمر الغائب المستقبل. وكيف التوفيق بين قوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرّ السحاب)(51) وبين قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)(52) فإن الآية الأولى تخبر عن حركة لا يشعر بها، والثانية عن حركة تذهل الأمهات عن أولادهن فتنبه.

وقد تمسك قوم بسطاء بقوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها)(53) فجعلوها دليلاً على بساطة الأرض تأويلاً منهم للدحو بالبسط وهو لعمري دليل واه لأن الدحو معناه الإلقاء والوضع(54). ويؤيد ذلك قوله تعالى: (والأرض وضعها للأنام)(55) وقال الشنفرى(56) من اللامية(57).

وأعـــدل مَـنـحـوضـاً، كـــأنَّ فُـصـوصَـه كَـعـابٌ دحـاهـا لاعـبٌ فـهـي مُـثَّـلُ(٥٨)

أي: ألقاها وطرحها. وحسبنا دليلاً على ما ذكرناه في المقابلة [16] الواقعة في الآية الكريمة أعني قوله تعالى: (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، رفع سمكها فسوّاها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض

بعد ذلك دحاها)(59) فإنه قابل الرفع بالدحو وهو في معرض الامتنان على العباد بأنه خلق لهم مقرّاً يقرون عليه لا في بيان أنها بسيطة، على أن بساطتها ليست أعظم من كريتها حتى يذكر في معرض الشدة والعظم.

رجعاً إلى ذكر أولئك البلهاء فإنه لا يسعهم حينئذ إلا أن يقولوا: هذا البحث حرام وأنه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه.

فليت شعري ما الذي تفعله هذه الأبحاث من الخلل في الديانة؟! ومن حرم البحث فيها؟ مع أنه تعالى أمرنا بالتفكير في ملكوت السموات والأرض والتدبر في بديع صنعه قال تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً [17] وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) (60)، روي أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام: (ويلٌ لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها)(61) وقال تعالى: (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى)(62) وقال تعالى في معرض التوبيخ للجهلاء: (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)(63) فكيف يلام من تفكر في ملكوت السموات والأرض، وعلم الوسائط والأسباب التي أقامها الحق سبحانه وتعالى وجعلها مترتبة على بعضها بحكمة وانتظام في خليقته وبذلك يزداد يقيناً وإيماناً، ويدرك ما لا يدركه الجاهل أصلاً، بل الجاهل بذلك لا يعلم قدرة الله وسعة ملكه ودقائق حكمته إلا تقليداً, والمقلد اليوم مصدّق وغداً مكذّب. ولكن ليعلم هؤلاء البلهاء[18] السخيفو العقول أن هذه المحاولة والتجلد لا يدفعان عنهم الجهل، ولا يرفعان منهم القدر، فلابد من أن يأتي الزمن الذي لم يُبق لهم حيثية أصلاً، حيث يقتضي الأمر بأن يكون نحوهم في مثل الأولاد المكتبلية المهذبين كشجرة العلّيق فلا يقر للبستاني قرار ما لم يقطعها ويخلص أشجار بستانه النافعة من شرها. نعم إنهم بارعون في جمع الأموال من أي باب كان من غير مبالاة في حلال أو حرام، وحديثهم العلمي هو الشعر الكذب، كما يقال بينهم: أعذبه أكذبه (64) فلو سمعوا مثلاً أحداً ينشد قول الشاعر: (من الكامل)

أو في السماء تكون قوة بأسه من الروع يوم البعث لم تتفطر

لرأيتهم يهيمون طرباً ويصيحون: الله الله، ويهزون أدمغتهم تعجباً واستعذاباً لهذا الكذب الممزوج بما يشبه الكفر، وربما طلبوا إعادته مراراً ليلذذوا به أسماعهم، فهم بذلك كما وصفهم [19] ربنا تعالى بقوله: (سمَّاعون للكذب أكَّالون للسحت)(65) ولله در القائل فيهم: (من الكامل):

من رُمتَ منهم أن تبثَّ بعقله نور الحقيقة قال: هذا أحمق

وتـــــــراه إن حـــدثـــتـــه بـــخـــرافـــة يـــهـــتـــزُّ مـــن طـــربِ لـــهـــا ويـــصـــفـــق

وسبب هذا الطيش والخفة والوقاحة فيهم هو أنهم لم يحصّلوا مدة حياتهم سوى هذه الأمور السافلة، وأما العلوم العالية فبعيدة عن أفكارهم القاصرة، فإذا لم يسلوا أنفسهم بتلك الخرافات ويروجوها بوقاحتهم وتمويههم ملُّوا حياتهم وساء عيشهم. على أن علومهم وإن زعموا نفعها لم تنفعهم في الوقت الحالي فما بالك في المستقبل حيث تنبغ أبناء المدارس في العلوم الرياضية الجديرة بالنفع. وقد أشار إلى ذلك الأديب: إسحاق أديب(66) بقوله: (من الطويل).

هـو الـعـلـم حـتـى يـدرك الـمـرء غـامـضـاً ولا يـخـتـشـي فـيـمـا يـقـول مـعـارضـاً[٢٠]
ومـــا الـشـعـر إلا شـاغـلٌ عـن نـوالـه فـهـذا قـريـضٌ بـاتَ لـلـعـلـم قـارضـا
وقـــد صـــرفـــت أفـكـارنـا نـحـو صـرفـنـا وفـي الـنـحـو بـات الـوقـت والـذهـن غـائـضـاً
فـــذا نـاصـب مـنـا يـخـالـف رافـعـاً وذا جـــازمٌ مـنـا يـغـايـر خـافـضـا
سـفـاسـف أقـــوال تـقـادم عـهـدهـا فـلـم تـبـد مـسـتـوراً ولـم تـجـلُ غـامـضـا
مـلأنـا بـهـا الأوراق وهـــي فـــوارغْ مـن الـنـفـع إلا بـارق مـرّ وامـضـا

وقال آخر: (من الكامل)

لا تـحـسـبـنَّ الـشـعـر عـلـمـاً نـافـعـاً مـــا الـشـعـر إلا مـحـنـة وخـبـال
فـالـهـجـو قـــذف والـــرثـــاء نـيـاحـة والـعـتـب ذلٌ والـمـديـح ســـؤال(٦٧)

وأما من تعلم منهم الفقه فأجارنا الله منه، فإنه إنما يتقنه ليجعل الحق باطلاً والباطل حقاً حسب الاقتضاء، ومن النادر وجود واحد منهم على نهج الاستقامة بل الغالب منهم كما قال الشاعر: (من المتدارك):

أمـــا الـــقـــاضـــي فـــي بـلـدتـنـا ســـلاب الـمـال بـلا حـــرج[٢١]
إن رمـــت الـــحـــق يـكـن بـطـلاً قـــم نـــحـــو حـــمـــاه وابـتـهـج

وقال آخر: (من الكامل):

قد كان وصف الأقدمين جميعهم طلب العلوم ليرتقوا بتنافس
والآن زال العلم منهم إنما نيل المراتب عندهم بقلانس
وبطول ذقن المرء إدراك المنى وفخاره أن يرتدي بطيالس
أترانا نرجو خير دهر قد غدا شرف الفتى فيه بحسن ملابس
ذهبت علوم قد أنارت ليلها وغدونا في ظلم النهار الشامس
علماؤنا جهلوا حقيقة دينهم وتقاسموا لجج الضلال الدامس
ذهب اليقين فلا يقين وإنما غايات علم الناس حدس الحادس

والحاصل ن هؤلاء القوم المغفلين على ما هم عليه من الجهل تراهم لا يقرون بفضل من أوصل المنافع إليهم مما يحتاجون إليه مأكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم وآدابهم ومداواة أمراضهم وهم مباشرون منافعها، والذي ينبغي للإنسان، أن لا يبخس [22] أحداً حقه كما قال تعالى: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم(68) ولا ينبغي أن يعتمد على مجرد عقله، بل ينبغي أن يستوضح ما خفي عليه إدراكه. ألا ترى أن عقولنا جميعاً لا يمكنها أن تتصور عمل الكبريت، خصوصاً الملون الشعاع، بل لو فرّغت علبة منه وطلبت من أحدنا أن يملأها كما كانت لعجز عن ذلك. أفيصح لنا أن ننكره بمجرد كون عقولنا لا تتصور عمله، ونحن كل يوم نوقد منه مصابيحنا؟! وهل يليق بنا أن ننكر مصابيح الغاز(69) الذي ننير به منازلنا بثمن بخس بما لا يمكن أن نعادل به من زيت الزيتون أو من شمع العسل ولو صرفنا أضعاف ما نصرفه على ذلك؟! وكثيراً ما نرى آلة من عمل الإفرنج ولا نعرف لأي غاية صنعت حتى يفهمنا أحد منهم سرَّها، فهذا قصورنا في فهم صنائعهم الجزئية فما بالك في صنائعهم الكلية مثل الوابور(70) والتلفون(71) وحافظة الصوت(72) والمكرسكوب(73) وما أشبه ذلك. وأعظم وأهم الجميع الآلات الحربية التي عليها [23] الاعتماد في حماية الدين والوطن. فهل تعهد من يحسن عمل كبسولة(74) في جميع بلادنا(75)؟! كلا. فهل معرفتنا الشعر والنحو والبديع والأحاجي التي هي كالريح تسمع لها دوياً ولا ترى لها جرماً تسد هذا الخلل، وتقيم لنا عذراً عن هذا القصور؟ كلا، لا يقول هذا إلا من طمس الله على لبه ورده إلى أسفل السافلين في المرتبة الحيوانية. وكأن حكمة الله اقتضت أن لا يتيسر لأحد من أهل بلادنا اختراع شيء مفيد لأن عقولنا ضعيفة فلا تحتمل ذلك(76) ألا ترى أن أحدنا إذا كان متقناً علماً ولو خسيساً مثل الشطرنج(77) أو المنقلة(78) أو الدومنو(79) أو لعب الحكم(80) أو اللعب بالنبوت(81)، أو كان يعرف يقسم أربعين قباوة(82) في سبعة صحون، يكاد يعلو شبراً عن الأرض في مشيته تيهاً وعجباً، مع أن هذه العلوم لا نفع منها بلا ضررها مقطوع به،

فكيف لو توفق لعمل شيء مفيد للناس؟ فلا شك أنه يرى نفسه حريَّة بأن يحملها الناس على رؤوسهم.

نعم إن الإنسان يرغب في مطالعة دواوين الشعر وهو [24] في سن العشرين إلى الثلاثين كما يقتضي طوره، فإذا تجاوز هذا السن ترك الشعر وانتقل إلى علم أرقى منه كعلم التاريخ ثم الطبيعة ثم الهيئة ثم الجغرافية وهكذا كلما ترقى عقله يترقى طلبه للعلوم. أما كونه يبلغ الأربعين والخمسين من عمره وهو باق في نقطة واحدة من الشعر والبديع والاستعارة وما أشبه ذلك ويقنع نفسه بأنه على شيء من العلوم فذلك ضرب من الجنون وقصور في الهمة، ألا ترى أن الطفل متى قدر على أن يمسك في يده شيئاً وأعطيته قطعة من الورق مثلاً فإنه يأخذها فرحابها فيقلبها وينظر في ظاهرها وباطنها ويتشاغل بها عن البكاء، وحينما تطول مدة بقائها في يد يتركها ويبكي فإذا رددتها إليه ثانية لم يأخذها، وأما إن أعطيته غيرها على هيئة جديدة كما إذا كانت مكتوبة قبلها ثم إذا رأى غيرها مذهبة ترك المكتوبة وطلب المذهبة وهكذا ينتقل من شيء إلى شيء أسمى. وكلما ترقى عقله ترقى مقصده على الدوام [25].

نعم لا بأس بالشعر الحسن إذا كان متضمناً مواعظ(89) وحكماً من شأنها إنهاض الفكر والتنبيه على محاسن الآداب والإرشاد والحث على المحبة والاجتهاد كقول الشيخ حسين الجسر الطرابيشي(90) مؤلف الرسالة الحميدية: (من الرجز):

وكن محب الوطن المعظم ... ذا غيرة عليه في التقدم
فحبه عُدَّ من الإيمان ... وبغضه من أعظم الخسران
وأبذل لهذا الخلق المجهودا ... حتى يكون طبعك المحمودا
فلا ينال المرء من فلاح ... حتى ترى الأوطان في نجاح
فخيرها خير لكل واحد ... من أهلها من واجد وفاقد
فما نجاح الأمم الغربية ... إلا بهذي الخصلة السنيه
وباكتساب العلم والفنون ... وغير ذا من واهن الظنون
فأصبحت ديارهم جنانا ... غنية وعزها مصانا
وقد غدوا أعزة الملوك ... أعاظم الغنيّ والصعلوك
وكل ذا من حبهم للوطن ... وكسبهم لكل فن حسن[٢٦]
هذا هو التمدن المحمود ... إليه يسعى الطالب السعيد(٩١)

وقلت متشبهاً بالحكماء ومقلداً للشعراء: (من البسيط):

من يطلب التبر من ترب الحديد فذا من أحمق الناس أو من جملة البهم
من ينتقد لك أعمالاً تشان بها فهو النصوح فخذه خير ملتزم
وإن صحبت فتى من أجل ثروته يجعلك كالعبد منه غير محترم
لا تبد قولاً إذا ما بان تجحده فعزة المرء والنقصان بالكلم
أعن أخاك إذا ما كنت ذا سعة تجده عوناً إذا ما صرت في غمم
يستعبد الحر في صنع الجميل كما يستعبد الرق بالأموال للخدم
إن البخيل الرفيع الأصل مضطهد وسافل الأصل موموق على الكرم
صاحب أخا الحلم تأمن من بوائقه فإن عثرت تجده غير منتقم
ومن تظاهر بين الناس في ورع فهو الخبيث وإن وافاك فانهزم
واحكم على من يرى جم الرفاق له بكثرة الكذب والتمليق بالكلم
وكثرة المال بالأنذال تفعل ما لا يفعل الفقر بالأشراف من عدم[٢٧]

وأما الشعر الرديء كقول القائل(92): (مجزوء الرجز):

يا سابحاً في بُركك وصائداً في شبكك
لا تحقرن ككي فككي ككك

فسماع نهيق الحمار بما كان أطرب من هذا وأمثاله، كأنه ظن أن كافاته تقوم مقام كافات الشتاء(93)، لقد أخطأت استه الحفرة. ويحسن هنا أن نورد ما نقله المرحوم خير الدين باشا التونسي(94) في كتابه "أقوم المسالك" عن مسيو دوري وزير المعارف العمومية بفرنسا(95)، فلعل الذي يسمعها من خواص أهل بلادنا تدبُّ فيه حرارة الغيرة على حاله ووطنه، فيصرف همته في العلوم والمعارف لاستحصال المنافع التي يحتاج إليها ترقي الوطن وتجمله في الصنائع والفنون، قال المسيو المذكور ما ترجمته: "بينما كان أهل أوربا تائهين(96) في دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك[28] حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس(97) وغرناطة وقرطبة(98) مراكز عظيمة لدائرة المعارف. ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنوناً علمية يأتي بيانها". إلى أن قال(99): "كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم، مؤداة بلغتين: الحميرية في اليمن والقرشية في الحجاز وبالأخيرة(100) جاء

القرآن. ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف، فأخذوا عن اليونان تآليف أرسطو(101) وشرحوها بإمعان نظر، لكن من سوء(102) البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية، وإنما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام، فهم ترجموا المترجم، فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد ابن رشد(103) إلى أوربا في القرون المتوسطة[29] وجد بها التحريف أكثر مما وقع فيها أولاً. وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى، والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية، وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خطوط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوير الأرض بالمشاهدة، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي(104) الخط المقيس، وقد شرح العرب كتاب إقليدس(105) وهذبوا زيج(106) بطليموس(107) وحرروا حساب تعريج منطقة البروج؛ كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية، فوجدوا بينهما عدة دقائق، ومنهم حازت مدينة (سمرقند) قبل أوربا بكثير محلَّ رصد عجيب(108). ويمكن أنهم نقلوا إلينا على ذلك[30] الوجه البوصلة أي: بيت الإبرة، والبارود الذي تعلموه من أهالي(109) الصين كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد(110) من القماش، وبذلك كثرت الكتب وتدنت أسعارها! وقد اشتهر العرب أيضاً بمعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس(111) شاهدة بما ذكر. ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في مدة واحدة(112) حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن سينا المتوفى سنة 426هـ، وابن رشد المذكور. وقد بلغوا من الشهرة إلى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم إياهم، كما يحكى أن بعض ملوك قسطيلة كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة، وحصل من لطف الخليفة على الإذن في أن يذهب ويداويه المسلمون. ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه [31] واستعمال الرواند(113) وأدوية كثيرة. ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافية. وسبب تقدمهم فيها أن ا تساع فتوحاتهم ورغبتهم في الأسفار الخطيرة لافتراض(114) الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التي لم يصل إليها أهل أوربا أو نسوها بعدما كانت معرفة لهم(115) ومن مشاهيرهم في هذا الفن أبو الفداء (116) والمسعودي(117) والإدريسي(118)، وهذا الأخير هو الذي استدعاه روجير(119) ملك صقلية وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه: "نزهة (120) المشتاق"(121). ومن مآثر العرب اصطناع الجوابي(122) والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر التي كانوا يجلبونها من المشرق(123) ومن مقاطع إسبانيا الجنوبية. ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذي بناه "عبد الرحمن الأول"(124) بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون(125) أسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم(126) وقد بناه "عبد الرحمن الثالث"(127) انتهى [32] كلام المسيو مسيودوري(128).

وفي تاريخ العرب (لسدليو)(129) مدرس علوم التاريخ بإحدى مدارس فرنسا وأحد أعضاء جمعية

المعارف بها ما معناه "إني منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الأمم فيما يتعلق بالعلوم والتقدم في التمدن مدة قرون متطاولة، من أيام اليونان بالإسكندرية إلى أيام العصر الجديد، فلزمني أن أجمع ما تيسر لي من الأدلة على عظم هذه الأمة التي لم يعرف قدرها إلى الآن، وأعرضه على ما لغيري ممن تكلم عليها فيتأسس تاريخاً لها(130) لها عموماً(131)، وإن كان ذلك مما لا تفي به طاقة إنسان واحد، وقبل الشروع في ذلك على وجه الاختصار يلزمني أن أ ندب الناس إلى التأمل في أحوال هذا الجنس الذي كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه ولم يزل مدة أربعة آلاف سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التي تميز بها على غيره، والتراتيب والعادات[33] الخاصة به. ومن حجج ذلك أن الوقت الذي كانت فيه الممالك القديمة في مبدأ تكوينها ذات حيرة، كان هذا الجنس إذ ذاك قائماً بنفسه قادراً على الإغارة على غيره، فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي، ثم بعد أن رجع إلى حدوده الأصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط قيرس(132) واسنكدر ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا، وبعد ظهور النبي (r) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج(133) في إسبانيا إلى نهر الغانج(134) في الهند، ورفعت على منار الإشادة(135) أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة كأنها نسيت بالمرة ما كان عندها [34] من التمدن الروماني واليوناني، وبعد انقسام ممالك الإسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نتجت على أيديهم، فإن خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وإن ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فإن سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية مطاعة في كل جهة لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم، وقد نال النصارى الذين استطاعوا إخراج العرب من إسبانيا بالخلطة معهم في الحروب معارفهم وصنائعهم واختراعاتهم، ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدَمةً في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب، وإلى الآن لم نطلع في أوربا على الأصول التي تبين لنا عادات العرب اطلاعاً تاماً، إذ لم يعرف عندنا من تواريخهم إلا تواريخ أبي الفداء وأبي فرج الأصبهاني(136) والمقريزي(137) وابن الأثير(138) ونبذة من تاريخ ابن خلدون(139) ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا، وإن كان [35] المقدار الذي حصل عندنا كافياً في رد غلط من غلط من أهل أوربا في شأن العرب. ثم إني ذكرت في تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الأولين وبتاريخ دولة بني أمية بدمشق وقرطبة وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد والفاطميين بمصر، وبانقسام الممالك الإسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم، فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وزدت عليه شيئاً لم يوجد في التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن الذي قد توشجت(140) عروقه في الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة إلى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا، وفي أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد في المعارف والعلوم فكانت إذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة(141) وأصبهان وسمرقند تتسابق في ميدان العلوم مع بغداد تخت بني العباس، وترجمت في تلك المدة كتب اليونان وقرئت[36] بالمدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الإنسانية فنتج عنها من الاختراعات الغريبة

ما شاع صيته في أوربا. فتبين بلا إشكال أن العرب هم أساتيذنا بلا إنكار لكونهم جمعوا الأدوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة، وبدؤوا(142) بكتابة الرحلات واخترعوا التأليف في تاريخ وفيات الأعيان ووصلوا في صناعة اليد إلى غاية لا تحد، وبقيت آثار أبنيتهم مما يدل (143) على اتساع معارفهم، وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بياناً لفضائلهم التي لم ينزلوا بها إلى الآن منزلتهم التي يستحقونها بسببها، فإن علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء والفلاحة، لما جاءت(144) في أيديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التي لا تصرف لها هممهم صرفاً تاماً، فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهاداً يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع إلى انتهاء القرن الخامس[37] عشر. ثم نقول: ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا إلى ما بقي مجهولاً لنا من ذلك. وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا، ولم نزل إلى الآن نطلع على أشياء من مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم، ثم قال في شأن التمدن العربي، أنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها(145)، ثم استشهد بقول اسكندر همبلط(146): أن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات إلى الوادي الكبير بإسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن، فتناولتها الأمم(147) على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً[38] لا يشتبه بغيره. فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني إسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس، فيخالطون غيرهم من غير أن يختلطوا به، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة، ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه، وما أخذت أمم ألمانيا في التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم، بخلاف العرب فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم، فحيثما حلوا حل معهم، فيبثون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التي هي أساس بني عليه المنسنقر(148) والتربدور(149) أشعارهم. ثم قال(150) وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها، في سائر الأوقات، ثم لما امتدت سلطنتهم من البيريني وهي جبال بين فرنسا وإسبانيا إلى جبال هملاي التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض. وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم[39] المحرقة، فسيرتهم في ذلك السائر بها إلى الآن أهل بلنسية(151) روضة إسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية، وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلاد الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها، وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التي كانت تحت سلطانهم بإسبانيا، وحريريات غرناطة والجوخ(152) الأزرق والأخضر بمدينة كونسة، والسروج والخروج بقرطبة، وكان أهل أوروبا يشترون هذه المهمات بأغلى ثمن ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهم. ثم قال بعد ذلك: ونعود الآن فنقول: (153) أنه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل إلى أوربا النصرانية وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا، ونحن نعترف بهم أساتيذنا ومعلمونا(154) الذين اهتدينا بنور علومهم وتمدنهم

وآدابهم". انتهى[40] كلام المسيو سدليو.

فالعجب كل العجب من قوم يقول لهم الإفرنج: قد أخذ أسلافنا كثيراً من حقائق علم الفلسفة والهيئة والطب والكيمياء عن أسلافكم، ولو لم يقتبسوا من نور علومهم لبقينا في ظلمات الجهل إلى الآن، وهم يتبرؤون منها ومن نسبتها إلى أسلافهم حتى أنهم يكفِّرون من قال بها أو يفسِّقونه، فسبحان من يداول الأيام بين العباد وله المراد فيما أراد وإليه المعاد. ولا بأس من أن نذكر ما جرى في جمعية علماء اللغات الشرقية مكان اجتماعهم مدينة ليدن من بلاد دولة هولاندة كما هي عادتهم في كل ثلاث سنين، وكانت الجمعية المذكورة مؤلفة من سائر طوائف أوربا من كل ملة بلا استثناء، والذي كان من طرف الدولة العلمية حضرة الشيخ أمين أفندي المدني(155) ففي نهاية اجتماعهم بعث المذكور رسالة إلى مجلة [41] المقتطف البهية في بيروت بخلاصة ما جرى في الجمعية فنشرتها في وقتها بحروفها فاقتطفنا منها ما يأتي: قال بعد أن ذكر محاورات العلماء وخطبهم وانتقادهم أقوال بعضهم من غير خروج عن حد الأدب(156): أن أحد علماء الفرنساويين واسمه المسيو رينان(157) كان ألف رسالة أنكر فيها على العرب ظهور واحد منهم بمظهر الفلسفة أو الحكمة، فلما جرى ذكرها وذكر مؤلفها التفت أحد العلماء الإنكليزيين واسمه الدكتور "تين" وقال: لا يُنكر فضل العرب وعلومهم(158) إلا من عميت بصيرته، فإن أوربا على تقدمها في العلوم، وجدّها واجتهادها لو لبثت مائة عام وهي تقرأ لا يمكنها أن تعرف مقدار فلاسفة العرب في الأندلس فقط فضلاً عن فلاسفة المشرق، ونحن لولا هؤلاء الفلاسفة ما وصلنا إلى شيء من علوم الأولين ثم لا زلنا ولا نزال كلما وجدنا حجراً مكتوباً أو عظمة أو خزفة(159) أو جلدة من آثار(160) العرب نستخرج منها تواريخ ونوادر وفوائد ولكن الأولى عدم الرد على المسيو[42] رينان لأنه جاحدٌ مُصادر يكابر في الحس كمن ينكر ضوء الشمس عناداً على أن جميع الأفكار الحاضرة لا تقصد إلا توحيد الكلمة والتأليف بين النوع الإنساني على اختلاف العوائد والمعتقدات بخلاف المسيو رينان فإنه يحاول أن يشق العصا حتى يردها جذعة. انتهى كلام الدكتور تين. ثم قال الشيخ أمين أفندي المذكور: (161) ومما يستحق البيان أيضاً أننا في المشرق لا نعرف أحوال أهل أوربا ولا العلوم التي يشتغلون بها ولا الكتب التي طبعوها في شيء ديني أو علمي(162) وقد وجدت فيهم قوماً يشتغلون بمذهب الحنفي(163) وقد طبعوا فيه كتباً عظيمة منها شرح القدوري(164) وفتاوى القروي(165) والتلويح في الأصول، وبعضهم يشتغل بمذهب الشافعي(166)، وقد طبعوا(167) منه: التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي(168) بغاية الجودة والضبط، ومنهم من هو شارع في شرح الورقات لإمام الحرمين(169)، وقد طبعوا صحيح البخاري(170) وتفسير البيضاوي(171) وغير[43] ذلك من الكتب الشرعية(172) الإسلامية وبعضهم مجد(173) في تدريس هذا التفسير مع التحقيق والتدقيق والمحاورة بينه وبين تلامذته. وأخبرني رجل منهم أنه يقرأ كل يوم عن ظهر الغيب جزءاً من القرآن المجيد، ثم إذا صرفنا النظر عن غايات الإفرنج في طبع هذه الكتب فأين يبيعونها وهم لا يطبعون أقل من خمسمائة نسخة من كل كتاب، وإني مع اشتغالي بالكتب مدة سنين ما رأيت أكثرها في بلاد المشرق. ولا سمعت بأنه طبع منها (174)، ويخشى(175) إن دام هذا الاعتناء في أوربا أن تشد إليها رحال

التحصيل من سائر الأقطار، حتى في طلب العلوم الشرعية الإسلامية، لأن الإفرنج متى اشتغلوا بعلم فإنهم لا يتركونه بل(176) يغوصون في بحاره فيستخرجون درَّه من طينته خصوصاً(177) أن ملوكهم مجدون في تمهيد السبل، وعلماءهم أسخياء بما لديهم، وكتبهم سهلة التناول والإعارة وبلادهم رغدة العيش، والأبدان فيها صحيحة، والأديان حرة، فكل هذه أسباب داعية[44] إلى انجذاب العالم إليهم. انتهى كلام الفاضل الشيخ أمين أفندي المدني ولله درّ الشاعر حيث يقول: (من البسيط):

حتى م تزرون يا إفرنج بالعرب ... مهلا فلا خير بابن قد زرى بأب
ما فضل قوم من الأوباش لا نسب ... لهم على قوم اسماعيل ذي النسب
إن كان بالعلم جئتم تفخرون فمن ... معالم العرب كل العلم والأدب
أخذتم الطب عنهم والحساب وما ... يتلوه والشعر حتى كل منتخب
تذكروا ما غنمتم باختطافكم ... أرزاقنا آه واحزني وواعجبي
وأي فضل للص دبّ في غسق ... على غني فاكتسى طوقاً من الذهب
فسوف يقبض جاسوس الزمان على ... ذا اللص فالدهر حكم غير منغلب
لا تفخروا يا بني الإفرنج في شطط ... على بني العرب أهل الأصل والحسب
صعدتم الأوج لكن فوق سلَّمهم ... فكرِّموا سلِّماً تمتد للشهب
وطهروا عند ذكر العرب ألسنكم ... فالعرب سادتكم من سالف الحقب[٤٥]
مهما سما العبد واستعلى وزاد غنى ... ما جاء سيده إلا من الجنب
ذي فطرة العرب عزت أين فطرتكم ... لم يلف بينهما –والله– من نسب
أنشاهم الله من جود ومن كرم ... ومن ذكاء ومن صفو ومن طرب
ومن ذمام أبى إلا الثبات ومن ... مروءة دأبها تبدو لدى الطلب
هم الذين لتاريخ القديم حموا ... فاغتلتموه وشنتم ذمة العرب
حسن الوفا والولا يغري لهم وكذا ... قِرى ضيوف وإحسان لمغترب
هذي خلائقهم والكل شاهدها ... فما خلائقكم يا أمة اللجب
دحاكم الله من لؤم ومن عنت ... ومن عتو ومن حقد ومن غضب
كأنما معهد الطاغوت عندكم ... فما نطقتم بغير المين والكذب
فلا صديق لكم غير النضار ولا ... خلٌّ سوى الفضة البيضاء والنشب
ولا وفاء ولا عهد ولا ذمم ... ولا حنوٌّ ولا عون لمنتكبِ
لم تحسنوا غير تعبيس الوجوه فلا ... أنسٌ لديكم ولا بشر لمرتقب

ولـــم تـــمـــدوا يـــداً لـــلـــغـــوث إن قـصـدت حـتـى تـعـود لـكـم بـالـنـهـب والـسـلـب[٤٦]
هـيـهـات مـا الـعـرب تـهـوى ذي الـطـبـاع فـلا تـــزروا بـهـم كـــازدراء الـشـوك بـالـعـنـب
تـــأدبـــوا كـلـمـا لـلـعـرب عـــنَ لـكـم تـــذكُّـــرٌ يـــا بـنـــي حـمَّـالـة الـحـطـب
الـعـرب قـد مـلـكـوا الـدنـيـا وقـد فـتـحـوا كـل الـمـنـاطـق مـن قـطـب إلـــى قطب
وقـد تـعـالـوا وســـادوا وارتـقـوا وسـطـوا وأرسـلـوا فـخـرهـم يـعـلـو عـلـى الـسـحـبِ
وهـــاك آثـــارهـــم بـــالـــفـــوز شـاهـدة مـــا بـيـنـكـم وإذا غـابـوا فـلـم تـغـب
فـمـا فـضـائـلـكـم بـــالأرض نـحـسـبـهـا غـيـر الـحـروب ودفـع الـنـاس فـي الـحـرب
تـبـارك الـلـه إنّ الـشـرق هـمَّ إلـى رأس الـمـدار وهـم الـغـرب لـلـذنـب

كأن شاعرنا المجيد أخذته الحدة حتى توسع في هجو القوم زيادة عن ما يقتضي، وعلى كل حال لا فضَّ فوه. فليعمل أهل هذا الزمان موازنة بينهم وبين أسلافهم الكرام ليعلموا في أي درجة كانوا من الترقي وما صاروا هم فيه من الانحطاط، نسأل الله أن يوقفنا لما فيه رضاه بجاه من شرف السماء قدماه. آمين.

وأرجو ممن اطلع على هذه المقولة المشوشة المبنى(47) أن ينظر إليها بعين الإنصاف من حيث المعنى، ولا يطلب مني تنميق العبارة، ولا الجمل المزينات بالتورية والاستعارة، فإني قليل البضاعة في هذه الصناعة. فالمفلس معذور والكريم غفور وصلى الله على سيد خلقه ومن فاق الجميع بخلقه وخلقه، ورضي عن آله وصحبه وأهله وحزبه آمين.

حرر في سنة 1311

الهوامش:

(1)في الأصل: المبروات.

(2)آل عمران: 190.

(3)يبدو أنه "المنطاد" وهو قبة هوائية ترتفع في الجو. هكذا عرفه في المنجد، وهو تعريف غير دقيق والأولى –فيما أرى– أن يقال: إنه قبة مصنوعة من قماش كتيم تملأ بغاز أخف من الهواء فترتفع حاملة معها ما يتعلق بها. وانظر وصف المنطاد في كتاب تاريخ الجبرتي 3/33 فقد صوره على أنه أعجوبة من الأعاجيب وانظر المقتطف المجلد السابع ص: 616: اختراع البالون.

(4)في الأصل: شاؤها.

(5)Telegraph: هو إرسال الخبر باللاسلكي وهو ما نسميه: البرق –انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م 50/743 المرجع للعلايلي.

(6)Vapor ومعناها البخار، وما أدري أيريد المؤلف بها القطار أم موقد النفط المستخدم في المطبخ.

(7)Telephone: هاتف –المرجع– وانظر مجلة مجمع اللغة العربية م 50 ص: 744.

(8)هل يريد وهمهم؟ أو أنهم يوهمون غيرهم من أوهم يوهم إيهاماً.

(9)وضع الكاتب هذه العبارة بين قوسين (هو بيت من الشعر من مجزوء الكامل).

(10)الإمام أبو حامد الغزالي –حجة الإسلام– محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، ولد بالطابران إحدى قصبتي طوس بخراسان سنة 450هـ–1058م وتوفي سنة 505هـ–1111م. فقيه، متكلم أصولي، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم.. عن معجم المؤلفين 11/266.

(11)في التهافت: قسم يرجع النزاع فيه..: 77.

(12)في التهافت جملة اعتراضية: –تعالى عن قولهم–.

(13)في التهافت: تفسيرهم.

(14)في التهافت: إلى مقوم يقومه. وقد حذف الكاتب بقية كلام الغزالي على سبيل الاختصار.

(15) في التهافت: القسم الثاني: 78.

(16)في التهافت: الأنبياء والرسل –صلوات الله عليهم–.

(17)في التهافت: محيط.

(18) في التهافت: وهذا الفن.

(19) في التهافت: يتحقق.

(20)هكذا في الأصل. والصواب: الكسوفين كما في التهاف: 78.

(21) في التهافت: ان هذا.

(22)تهافت الفلاسفة: 78–77 ط: دار المعارف. ص: 4 ط مصر سنة 1319هـ.

(23)نقل الكاتب هذه المعلومة من مجلة المقتطف م 8 ص: 668.

(24)في الأصل: ليجعلونها.

(25)يعني معرفة فرق المنسوب بين النقاط المختلفة على سطح الأرض ومعرفة أماكن الحفر والردم لكي لا يتجاوز الميل الأعظمي المسموح به في السكك الحديدية.

(26)يبدو أنه يريد معرفة مقاومة الهواء الساكن ومقاومة الرياح الهائجة لجسم القطار. انظر السكك الحديدية ص237، للمهندس عبد النافع شاهين.

(27)المضخة.

(28)يصح هذا المقياس في الشروط النظامية للضغط الجوي. وإلا فإن العمق يختلف زيادة ونقصاناً بارتفاعنا أو بانخفاضنا عن سطح البحر.

(29)هكذا في الأصل.

(30)في الأصل: مراعات.

(31)انظر هذه الأخبار وأمثالها في كتيب صغير بعنوان: بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس. طبع في مصر، المكتبة السعيدية بجوار الأزهر.

(32)نسبة تركية إلى المكتب.

(33)حسن حسني "باشا" بن حسين عارف الطويراني 1226هـ-1315هـ، 1897-1850م: شاعر منشئ، تركي الأصل مستعرب. ولد ونشأ بالقاهرة، وجال في بلاد آسية وأفريقية والروم. وأقام بالقسطنطينية إلى أن توفي. كان أبيّ النفس بعيداً عن التزلف للكبراء، وكان يجيد الشعر والإنشاء باللغتين العربية والتركية، وله في الأولى نحو ستين مصنفاً وفي الثانية نحو عشرة. وأكثر كتبه مقالات وسوانح. عن الأعلام 2/201 باختصار. وانظر معجم المؤلفين 3/216.

(34)في كتاب المعارف: 11 ثم قال الله عز وجل: نخلق بشراً بصورتنا، قارن بالعهد القديم: سِفر التكوين: ص2: وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.

(35)هذا حديث موضوع. انظر كتاب المطالب في أحاديث مختلفة المراتب ص: 110.

(36)عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ويقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له. صحيح البخاري: 1/131 باب الدعاء والصلاة في آخر الليل. الترمزي: برقم 446. والحديث صحيح، ولا وجه لإنكار ما فيه ولا حجة إلا الفهم السطحي، وقد شرحه الإمام ابن تيميَّة مبيناً مقاصده ودلالاته وطبع شرحه في المكتب الإسلامي بدمشق.

(37)بدائع: الزهور: 12- قارن بالعهد القديم، سفر التكوين: 3.

(38)بدائع الزهور: 6.

(39)قال أبو سعيد قال النبي r: أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت عدن. البخاري: 4/88 كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.

(40)نلاحظ أن السيد حسن الطويراني خلط في كلامه الصحيح بالزائف، وكان عليه أن يميز بين الأقوال ويعزو كل قول إلى صاحبه وينزله مكانه اللائق به في الأفهام والعقول.

(41)ورد ذكره في تاريخ الأستاذ الإمام 1/959.

(42)الفرقان: 63.

(43)يس: 33.

(44)يس: 40.

(45)الشمس: 1 و2 و3 و4.

(46)يسن: 38.

(47)في الأصل: تأويل.

(48)النمل: 88.

(49)من حكم اللفظ أن يحمل على حقيقته إذا تجرد، ولا يحمل على مجازه إلا لدلالة. لأن واضع الكلام للمعنى إنما يضعه ليكتفي به في الدلالة عليه ويستعمله فيه. المعتمد في أصول الفقه 1/35.

(50)النمل: 88.

(51)النمل: 88.

(52)الحج: 1، 2.

(53)النازعات: 30.

(54)قال ابن فارس: الدحو: الدال والحاء والواو أصل واحد يدل على بسط وتمهيد. معجم المقاييس: دحو. قلت: ومعنى البسط والتمهيد لا يناقض معنى كروية الأرض لأن الجسم العظيم المكور يكون ظاهرة كالسطح المستوي: وانظر مفاتيح الغيب 31/48.

(55)الرحمن: 10.

(56)ثابت بن أوس الأزدي. شاعر جاهلي صعلوك. قتل حوالي عام 510م.

(57)وهي القصيدة المعروفة بلامية العرب. وقد نشرتها مشروحة وزارة الثقافة بدمشق سنة 1966 بتحقيق الأستاذ عبد المعين الملوحي ومطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم

فإني إلى قوم سواكم لأميل

(58)هذا البيت الثالث والأربعون من القصيدة. المنحوض: القليل اللحم. الفصوص: جمع فص وهي فواصل العظام. دحاها: فرشها. والمعنى: ووسادتي ذراعي التي قل لحمها، فكأن فواصلها كعاب من العظام منتصبة. الشرح: 42.

(59)النازعات: 27.

(60)آل عمران: 191.

(61)انظر روح المعاني 4/157. وفيه: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

(62)الروم: 50.

(63)يوسف 105 في المخطوط: وكم من آية.

(64)إشارة إلى قول النقاد قديماً أعذب الشعر أكذبه.

(65)المائدة: 42.

(66)هكذا في الأصل. الصواب: أديب اسحق: "1272–1302، 1856–1885" أديب إسحق الدمشقي: أديب، حسن الإنشاء. له نظم. حرر في بعض صحف بيروت. سافر إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وأصدر فيها جريدة (مصر) سنة 1877م ثم عاد إلى الإسكندرية وعمل في الصحافة. سافر إلى باريس 1880 واصدر جريدة "مصر القاهرة". ثم عاد إلى بيروت فمصر. وغادر مصر بعد الثورة العرابية وتوفي في قرية الحدث (بلبنان). عن الأعلام 1/274.

(67)ورد البيتان غير منسوبين في كتاب فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردي ص 90 ط: مصر 131.

(68)الأعراف: 85.

(69)النفط.

(70)سبق ذكرهما.

(71)سبق ذكرهما.

(72)يبدو أنه يريد الأسطوانة.

(73)المجهر.

(74)الطعم.

(75)قال الجبرتي بعد أن شاهد بعض تجارب الكيمياء أيام الحملة الفرنسية على مصر "سنة 1213هـ": ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتاج لا يسعها عقول أمثالنا –تاريخ الجبرتي: 3/37.

(76)قارن بموقف الجبرتي السابق ذكره في المقدمة.

(77)فارسي معرب وبعضهم يكسر شينه –المعرب: 257.

(78)من ألعاب التسلية لا يزال الناس يلعبونها في مناطق من الجزيرة السورية. وفيها ينقل الحصى من تجويف إلى تجويف ضمن خشبة معدة لذلك.

(79)يبدو أنه يريد الداما وهي لعبة تركية لا تزال منتشرة في مقاهي بلادنا.

(80)لم أعرف هذه اللعبة.

(81)معنى النبوت العصا الغليظة والفرع النابت من الشجر ولعله يريد بذلك لعبة أدواتها عصوان غليظتان يتبارز بهما لاعبان.

(82)ربما كان يريد بالقباوة ما يطلق عليه "الصرة" وهي جزء من كرش الغنم يحشى بالرز واللحم ولعل الكلمة شائعة حتى الآن في حلب وهناك أسرة بهذا الاسم كما أن الكلمة متداولة في حمص.

(89)في الأصل مواعظاً.

(90)حسين الجسر 1327–1261هـ، 1909–1845م، حسين بن محمد بن مصطفى الجسر الطرابلسي الحنفي، عالم، أديب، صحافي. ولد بطرالبس الشام، وأنشأ جريدة "طرابلس" وتوفي بها في رجب. من آثاره: الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، الكواكب الدرية في الفنون الأدبية. معجم المؤلفين: 4/58.

(91)النص منقول من مجلة المقتطف. السنة الثامنة. ص: 589.

(92)الأبيات لزجال مصري يعرف بالمفشراني ويلقب بأديب القفة. والككك المذكور في الشعر هو مركب من مراكب صعيد مصر ليس فيه مسمار. انظر بدائع البدائه: 1/38.

(93)كافات الشتاء جمعها محمود بن نعمة الشيخ أبو الثناء الشيرازي المتوفى سنة 556هـ بقوله:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا

كـيـس وكـــن وكـــانـــون وكـــأس طـلا مـــع الـكـبـاب و... نـــاعـم وكـسـا

النجوم الزاهرة: 5/358. وانظر مقامات الحريري: 187 "المقامة الخامسة والعشرون" وانظر أيضاً حلية البشر 3/1512.

(94)خير الدين باشا التونسي 1225–1308هـ/1810–1890م. وزير مؤرخ، من رجل الإصلاح الإسلامي، شركسي الأصل، قدم صغيراً إلى تونس، فاتصل بصاحبها (الباي أحمد) وأثرى، وتعلم بعض اللغات وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة وفي سنة 1294هـ–1877م أبعد عن الوزارة. فخرج إلى الآستانة وتقرب من السلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى (سنة 1295هـ) فحاول إصلاح الأمور، فأعياه، فاستقال (سنة 1295هـ) ونصب عضواً في مجلس الأعيان، فاستمر إلى أن توفي بالآستانة. له كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. الأعلام: 2/375.

(95)ترجم له في حاشية أقوم المسالك ص120 بما يلي: فكتوردوري: Victor Duruy (1811– 1894) مؤرخ، ووزير التعليم بفرنسا من 1863 إلى سنة 1869 ثم عضو بالأكاديمية الفرنسية ابتداء من 1884– اقتطف خير الدين هذه الصفحات من كتابه: تاريخ القرون الوسطى منذ سقوط الإمبراطورية الغربية إلى وسط القرن الخامس عشر –ط باريس 1867– ص112– 128 (فصل حضارة العرب).

(96)في أقوم المسالك: بينما أهل أوربا تائهون.

(97)في أصلنا المخطوط: فارس وهو تصحيف. والتصحيح من أ قوم المسالك ص120.

(98)في أصلنا المخطوط: قرطاجنة والتصحيح من أقوم المسالك.

(99)أقوم المسالك: 122–121.

(100)في المخطوط: وبالأخير.

(101)أرسطو طاليس 322–384ق.م وهو أشهر من أن يعرِّف.

(102)في المخطوط: لسوء.

(103)ترجم له في حاشية المسالك: 122، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد –520 595هـ 1190–1126م يلقب بالحفيد لأن جده كان قاضياً مفتياً مالكيا بقرطبة وكذلك أبوه من بعده. كان يلقب أيضاً بشارح أرسطو. ولد بقرطبة ومات بمراكش. من أشهر تآليفه: تهافت التهافت يرد فيه على الغزالي.

(104)في المخطوط: طرف.

(105)إقليدس: رياضي يوناني في القرن الثالث ق.م مشهور بكتابه في الهندسة (الأصول).

(106)الزيج: كتاب في الجداول الفلكية.

(107)بطليموس: فلكي يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي وهو صاحب كتاب "المجسطي".

(108)النص في أقوم المسالك كما يلي: فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق. واخترعوا للتحريرات آلات جديدة. إلى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية. ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب.

(109)في أقوم المسالك: أهل: 124.

(110)الورق. والكاغد: فارسي معرب.

(111)جالينوس: 201–131م اهتم العرب بطبعه.

(112)في أقوم المسالك: 124: وقت واحد.

(113)جاء في حاشية أقوم المسالك: الراوند نبات عريض الورق يؤكل، خاصيته الطبية إطلاق البطن وتقوية المعدة.

(114)في المخطوط: بافتراض.

(115)في المخطوط: عندهم.

(116)جاء في حاشية أقوم المسالك: 125: أبو الفداء الملك المؤيد اسماعيل بن علي من سلالة صلاح الدين الأيوبي (732–672هـ/1331–1273م) شارك في الحروب ضد الصليبيين وأصبح ملك حماة. صاحب كتاب في الجغرافية: تقويم البلدان وكتاب في التاريخ مختصر تاريخ البشر.

(117)عرف به في الحاشية: (ت 354هـ/956م) ولد ببغداد. صاحب مروج الذهب، وكتاب التنبيه.

(118)الإدريسي: (ت 560هـ/1166م) من مواليد سبتة. تعلم بالأندلس وخدم الملك النرماني روجار الثاني بصقلية، صاحب كتاب في الجغرافية "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" المشهور بكتاب روجار. وفي تاريخ وفاته خلاف.

(119)ملك من الفرنج، صاحب صقلية، هلك بالخوانيق سنة 548هـ/1148م. تاريخ الأدب الجغرافي 1/282.

(120)في المخطوط: نزهت.

(121)قفز المصنف إلى الصفحة 126 من أقوم المسالك.

(122)لم أهتد إلى معناها، وفي المنجد: الجوب القميص وجمعه أجواب. الجوابي: ج جابية– حوض الماء الضخم جبى فيه الماء للإبل – المحيط – مادة جبي

(123)في المخطوط: الشرق.

(124)عبد الرحمن الأول: "172–113هـ/788–731م) أو الداخل، فر من العباسيين وأسس بقرطبة الدولة الأموية "138هـ–756م" سمي صقر قريش لبأسه. عن حاشية أقوم المسالك ص: 127.

(125)في المخطوط: وتسعين.

(126)عبارة (في العظم) سقطت من المخطوط.

(127)عبد الرحمن الثالث "961–912/350–300م" أو الناصر، ثامن أمراء بني أمية بالأندلس وحد صفوف البربر والعرب، وعاشت الأندلس في عهده عصرها الذهبي. عن أقوم المسالك: 127.

ملاحظة: ولد عام 277هـ/890م. وولي الخلافة عام 300هـ.

(128)الكلام لم ينته وإنما اكتفى مؤلفنا بما نقله. انظر أقوم المسالك: 127 وما بعدها.

(129)Sedillot- 1808-1887. مؤرخ وكاتب عام للكوليج دي فرانس ابتداء من 1832، ثم كاتب عام لمدرسة اللغات الشرقية بباريس. صاحب تأليف "تاريخ العرب" ط: باريس 1854. عن أقوم المسالك 130.

(130)هكذا في أقوم المسالك والمخطوط.

(131)هكذا في أقوم المسالك والمخطوط.

(132)Cyrus: ملك الفرس 558ق.م ابن قمبيز، كان مسيطراً على آسيا الغربية -عن أقوم المسالك: 131.

(133)يبدو أنه يريد نهر "تاجة" الذي ينبع من هضبة إسبانيا ويصب في المحيط الأطلسي ماراً بمجريط وطليطلة وطلبيرة وهو أطول نهر في إسبانيا والبرتغال. طوله 1000كم.

(134)نهر الغانج ينبع من هملايا ويصب في خليج البنغال. طوله: 3100كم.

(135)في المخطوط: الإشارة.

(136)في أقوم المسالك: أبي الفرج وهو الصحيح.

(137)تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: (845-769هـ/1441-1367م) عن معجم المؤلفين 2/11.

(138)عز الدين أبو الحسن، (630-552هـ/1186-1110م) من مواليد الموصل، حارب الصليبيين في جيش يقوده صلاح الدين الأيوبي. صاحب كتاب الكامل في التاريخ. أقوم المسالك: 132.

(139)عبد الرحمن بن خلدون (808-732هـ/1406-1332م) عرف بمقدمته وتاريخه.

(140)في المخطوط: توشحت.

(141)الرقة: قاعدة ديار مضر في الجزيرة على الفرات. أقوم المسالك: 133.

(142)في المخطوط: وبدؤوا. وكتبت الهمزة مفردة في أقوم المسالك: 133.

(143)بداية ص 134 في أقوم المسالك.

(144)في المخطوط: جأت.

(145)بداية ص 135 في أقوم المسالك.

(146)Alexandra Humboldt "1769-1859" رحالة وجغرافي ألماني. عن أقوم المسالك: 135.

(147)في المخطوط: تلك الأمم.

(148)المنسنقر والتربدور: دخيل ألماني وفرنسي. طائفة من الشعراء الغنائيين ظهرت في القرون الوسطى بألمانيا وفرنسا. عن أقوم المسالك: 135.

(149) المنسنقر والتربدور: دخيل ألماني وفرنسي. طائفة من الشعراء الغنائيين ظهرت في القرون الوسطى بألمانيا وفرنسا. عن أقوم المسالك: 135.

(150)انظر ص127 من أقوم المسالك.

(151)في المخطوط: بلنسة.

(152)في حاشية أقوم المسالك ص128: الجوخ: "فارسية" نسيج من الصوف. وانظر مجلة مجمع اللغة العربية م 50 ج4 ص746.

(153)انظر ص 135 في أقوم المسالك.

(154)هنا ينتهي النص في أقوم المسالك: 135.

(155)ذكر صاحب معجم المؤلفين 3/9: أمين بن علي المدني وقال: كان حياً 1304هـ-1887م مؤرخ، أديب. قلت: والرسالة المذكورة نشرت في المجلد الثامن من المقتطف سنة 1883 فمن المعقول أن يكون صاحب الرسالة هو نفسه المذكور في معجم المؤلفين.

(156)المقتطف 8/219.

(157)آرنست رينان: 1823-1892 مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي ألف رسالة عن ابن رشد والرشدية.

(158)في المقتطف: علم العرب وفضلهم.

(159)في المخطوط: خرقة. والتصحيح من المقتطف.

(160)في المخطوط: مآثر.

(161)المقتطف 8/289.

(162)في المخطوط: أو غيره.

(163)نسبة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي 80-150هـ/699-767.

(164)أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي المشهور بالقدوري نسبة إلى بيع القدور (362-428هـ/973-1037م) فقيه حنفي، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق. وتوفي ببغداد في رجب. معجم المؤلفين 2/66.

(165)لم أهتد إلى مؤلف بهذا اللقب. والأرجح أنه يريد فتاوي الأنقروي من فقهاء الأتراك.

(166)نسبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي 150-204هـ/767-819م.

(167)في المقتطف: فطبعوا من كتبه.

(168)أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف بن عبد الله: 476-393هـ/-1003 1084م: فقيه شافعي، أصولي، مؤرخ، أديب. ملقب بجمال الدين.

(169)له كتاب التنبيه، والمهذب "في الفقه". ألف في الأصول كتاب "اللمع" وهذه الكتب كلها مطبوعة. الفتح المبين في طبقات الأصوليين 1/255.

(170)إمام الحرمين 478-419هـ/1085-1028م عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرّس، جامعاً طرق المذاهب، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك "المدرسة النظامية" فيها. عن الأعلام 4/306. وكتاب "الورقات" في أصول الفقه. معجم المؤلفين 6/184.

(170)البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغير البخاري، الجعفي (أبو عبد الله) محدث حافظ، فقيه مؤرخ، مشارك في علوم. (265-194هـ/780-810م) وأهم كتبه: الجامع الصحيح. معجم المؤلفين 9/52.

(171)البيضاوي (ت 685هـ/1286م) عبد الله بن عمر بن محمد علي البيضاوي، الشيرازي، الشافعي، (ناصر الدين، أبو سعيد) قاض، عالم بالفقه والتفسير والعربية والمنطق والحديث. توفي بتبريز. معجم المؤلفين 6/97.

(172)في المقتطف: كتب الشريعة.

(173)المقتطف: وترى بعضهم مجداً.

(174)كلمة "منها" ليست في المقتطف.

(175)في المقتطف: وأخشى.

(176)في المقتطف: ثم يغوصون.

(177)في المقتطف: خصوصاً وملوكهم.

مراجع التحقيق

(1)أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب للشيخ محمد بن السيد درويش الشهير بالحوت. بيروت سنة 1319.

(2)الأعلام: خير الدين الزركلي –الطبعة الثالثة.

(3)أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك: خير الدين باشا التونسي. بتحقيق المنصف الشنوفي –الدار التونسية للطباعة والنشر.

(4)بدائع البدائة: علي بن ظافر الأزدي. بهامش معاهد التنصيص. المطبعة المصرية البهية 1304.

(5)بدائع الزهور: محمد بن أحمد بن إياس. طبع مصر بالتزام سعيد علي الخوصي.

(6)تاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. مصر: جامعة الدول العربية.

(7)تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده. الشيخ محمد رشيد رضا. مصر: مطبعة المنار –1350هـ-1931م.

(8)تاريخ الجبرتي المسمى عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي. المطبعة العامرة الشرفية 1322هـ.

(9)تفسير الرازي: فخر الدين الرازي. المطبعة البهية بمصر.

(10)تهافت الفلاسفة: أبو حامد الغزالي. تحقيق د.سليمان دنيا. دار المعارف بمصر–الطبعة الثالثة.

(11)حلية البشر: الشيخ عبد الرزاق البيطار، تحقيق العلامة محمد بهجة البيطار. مجمع اللغة العربية بدمشق.

(12).روح المعاني: السيد محمد الآلوسي البغدادي. طبعة مصورة عن طبعته الأصلية الثانية.

(13)السكك الحديدية: المهندس عبد النافع شاهين. الأمالي الجامعية بجامعة دمشق

(14)سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي. أشرف على طبعه: عزت عبيد الدعاس. حمص 1385هـ-1965م.

(15)صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري أبو عبد الله. المطبعة الميمنية بمصر 1306هـ.

(16)العهد القديم: المطبعة الأميركانية في بيروت سنة 1909.

(17)الفتح المبين في طبقات الأصوليين: عبد الله مصطفى المراغي. بيروت 1394هـ-1974م.

(18)اللاميتان: للشنفرى والطغرائي. أعدهما وعلق عليهما الأستاذ عبد المعين الملوحي. وزارة الثقافة بدمشق 1966.

(19)مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

(20)مجلة المقتطف: يعقوب صورف وفارس نمر –المجلد الثامن 1883.

(21)المرجع: عبد الله العلايلي. بيروت 1963 المجلد الأول.

(22)المعارف: ابن قتيبة. تحقيق الدكتور ثروت عكاشة. طبع دار الكتب المصرية 1960.

(23)المعتمد في أصول الفقه: أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي بتحقيق محمد حميد الله بتعاون مع محمد بكر وحسن حنفي. نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1964.

(24)معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة. مطبعة الترقي بدمشق: 1376هـ-1957م.

(25)المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. نشره الدكتور أ.ي.ونسنك. ليدن 1936 طبعة مصورة عن الأصل.

فهرس

مقدمة التحقيق	5
مقولة السّوط المضفور للجاهل المغرور	12
الهوامش:	82
مراجع التحقيق	43

(26)المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي. طبع كتاب الشعب بمصر.

(27)معجم مقاييس اللغة: ابن فارس. بتحقيق عبد السلام هارون. مصر 1366هـ.

(28)المعرب: الجواليقي. بتحقيق أحمد محمد شاكر. وزارة الثقافة 1389هـ-1969م.

(29)مقامات الحريري: أبو محمد القاسم بن علي. طبعة بولاق 1300هـ.

(30)المنجد: المطبعة الكاثوليكية -بيروت. الطبعة (17).

(31)النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.